HEXATIMES
Delaware, United States
HEXA
ARABIC LANGUAGE SCIENCES
هكسا
علوم اللغة العربية

دعاء زكريا في القرآن الكريم :قراءة في تنوع الأنساق البلاغية

الدكتور حامد أحمد المغربي
دكتوراة في البلاغة ـ جامعة المنيا ــ جمهورية مصر العربية
dr.hamed012@gmail.com

ملخص البحث :

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على ظاهرة تعدد الأنساق في التعبير القرآني عن دعاء زكريا عليه السلام، وإبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم في التأليف بين كثيرٍ من المعاني المختلفة في الموضوع الواحد أو في المضمون العام الواحد، من خلال رصد تناسب المفردة القرآنية مع سياق النص، وعلاقتها الدلالية به، وارتباط معاني هذه المفردات بألفاظ ومعاني النص ودلالاته ككل، ومدى مناسبتها ــ عند تكرارها أو تكرار ما يقابلها ــ في مواضع أخرى وسياقات مختلفة؛ لإثبات أن القرآن الكريم لم يكن يسترسل في الحديث عن الموضوع الواحد بأسلوب يبعث على الملل أو التكرار لمجرد التكرار أو التأكيد، وإنما لمعانٍ لا تُدرك إلا بالتأمل والنظر.

الكلمات المفتاحية : النظم القرآني ــ الأنساق البلاغية ــ الدعاء.

Extract

This research aims to stand on the phenomenon of the multiplicity of formats in the Qur'anic expression of Zakaria's prayer, and to highlight one of the aspects of the miracle of the Holy Qur'an in the combination of many different meanings in the same subject or in the same general content, by monitoring the proportionality of the Qur'anic vocabulary with the context of the text, and its relationship The semantics of it, and the connection of the meanings of these vocabulary to the words and meanings of the text and its connotations as a whole, and the extent of their relevance - when they are repeated or the corresponding repeats - in other places and different contexts; To prove that the Noble Qur'an was not talking about the same topic in a bored or repetitive manner just for the sake of repetition or confirmation, but rather for meanings that can only be understood by contemplation and consideration.

خطة البحث :

- **مقدمة :** تتضمن مصطلحات البحث.
- **موضوع البحث :** مظاهر تنوع الأنساق البلاغية في مناجاة زكريا عليه السلام من خلال المباحث الآتية :

1) **المبحث الأول :** تنوع التعبير عن عن طلب زكريا عليه السلام بأن يهبه مرة ((وليًا)) ومرة ((ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)) وثالثة ((لَا تَذَرْنِي فَرْدًا)).
2) **المبحث الثاني :** تنوع التعبير القرآني عن البشرى بالولد بقوله مرة : ((إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ)) وأخرى بقوله: ((وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ)) وثالثة بقوله: ((وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)) .
3) **المبحث الثالث :** علة تقديم زكريا عليه السلام حال امرأته على حاله في موضع مريم بقوله : ((رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا)) وتأخيره في موضع آل عمران، بقوله: ((رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ)).
4) **المبحث الرابع :** دلالة التعبير عن مدة صمت زكريا عليه السلام مرة بلفظ الليالي في مريم ((ثَلَٰثَ لَيَال)) وبلفظ الأيام في آل عمران ((ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ)) .

- **خاتمة** : تتضمن نتائج البحث .
- **ثبت المصادر والمراجع .**

تقديم :

نكاد لا نجد نبيًّا من الأنبياء إلا وقد دعا وابتهل, فالدعاء والمناجاة تُعد مكونًا أساسيًا من مكونات رسالتهم, وكاشفًا في الوقت ذاته ــ عن شخصياتهم الموصولة بالله Ψ, وعن العناية الربانية التي رافقتهم وقادتهم إلى النصر والنجاة، وبتتبع ألفاظ وصيغ الدعاء سنجد فيها تقاربًا بل تشابهًا إلى حدٍ كبيرٍ بين مقاصد الدعاء ومضامينه، مع اختلافٍ أو تفاوتٍ في بعض الألفاظ حذفًا أو زيادة، تقديمًا أو تأخيرًا، فالاختلافات في الألفاظ طفيفة مع اتحادٍ في المعاني أو المقاصد، ذلك لأنهم أئمة، يصدرون في إمامتهم عن مشكاة واحدة، ويسعون إلي هدف واحد، ويستنيرون ببصيرة تستمد هديها من وحي السماء، الأمر الذي سيتكفل هذا البحث بتسليط الضوء عليه، من خلال دعاء زكريا عليه السلام بطلبه أن يرزقه الله ولدًا صالحًا، وعقد موازنات بين هذه المواضع التي ورد فيها مضمون هذا الدعاء؛ بغية إبراز القضايا البلاغية والأسرار البيانية التي وفرتها تنوعات الأنساق البلاغية في تلك المواضع .

وقبل ذلك يحسن الوقوف ـ أولاً ــ لتحرير مصطلحات البحث ، وهي كالآتي :

أ. **مفهوم النظم:** جاء في معاجم اللغة:"النظم: هو التأليف..ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل وكل شيء قرنته بآخر، أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته"(1). وفي القاموس:"النظم: التأليف، وضم شيءٍ إلى شيءٍ آخر، والمنظوم والجماعة من الجراد وثلاثة كواكب من الجوزاء والثريا والدبران، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظمًا ونظامًا ونظمه: ألفه وجمعه في سلك، فانتظم وتنظم، وانتظمه بالرمح: اختله، والنظام: كل خيط ينظم

به لؤلؤ ونحوه"(2). **فالنظم:** عبارة عن ضم الأشياء بعضها إلى بعض وتنسيقها على نحو من الاتساق؛ والتراص على نسق خاص في تأليف الكلام للدلالة به على المعاني المقصودة.

واصطلاحًا: عملية تأليف الكلمات والجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ مرتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل (3).

فموضوع النظم إذن: البحث في علاقة الكلمات والجمل بعضها ببعض، وبيان وجه ارتباطها، والأسرار المعنوية وراء هذه الارتباطات، فالمعنى هو المحور، وهو الأصل، وليست القيمة في ألفاظ اللغة وحسب، وإنما قيمتها تظهر في قيمة المعاني التي تكشف لنا عن ينابيعها، وتكمن في فهم المعاني القرآنية التي تقودنا إليها وتكشف عن أسرارها.

ويُعد الجاحظ (ت255هـ) أول من قال بنظم القرآن، وأن القرآن الكريم معجز بنظمه، وما فيه من بلاغة تأسر القلوب، وأن النظم يعني التأليف والتركيب، وقد أشار إلى نحو ذلك بقوله: "عنيت في كتابي في الاحتجاج بنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه"(4)، فربما يعود إليه الفضل في وضع اللبنة الأولى لنظرية النظم التي قعدها وفصل القول فيها الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) فيما بعد(5).

وخلاصة رأي الجاحظ في قضية النظم: أن الإعجاز متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القرآن من معاني، إذ طلب الله تعالى إليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف، حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفترى لا معنى له (6).

ب. خصوصية النظم القرآني: إن وجوه إعجاز القرآن ليس فيما يتمثل فيه مما هو معروف من أبواب البلاغة من تشبيه أو استعارة أو كناية وحسب، إنما يتجاوز ذلك إلى صحة المعاني ونظم العبارات في أحسن تأليف وترتيب وتناسق، فالمراد من نظم القرآن هو: تأليف حروفه وكلماته وجمله، بطريقة غاية في التناسق والتناسب، وبمنتهى الدقة والإحكام، لتؤدي المعنى المراد على أبلغ ما يكون التعبير، وأجمل ما يكون التصوير.

وصفات الحروف ومخارجها في ألفاظ القرآن ضرب من الإعجاز لم يسبق إليه أحد، وهذه المخارج والصفات إنما أخذ أكثرها من ألفاظ القرآن، لا من كلام العرب وفصاحتهم، فإن طريقة النظم التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت لها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي ρ فجعلت المسامع لا تنبئ عن شيء من القرآن، ولا تلوى من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال إليه، والتوخي على الإصغاء لا يستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستأنسه الشيطان، وإن كانت طاعته عندهم عبادة، فإنما يسمع ضربًا خالصًا من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه، واتزانه على أجزاء النفس مقطعًا مقطعًا، ونبرة نبرة(7).

والدقة التامة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها ووضعها في موضعها أو ما يسمى (إصابة المعنى) سمة يتمتع بها النظم القرآني بشكل عام، فإنه ينتقي من الألفاظ ما يناسب السياق، للتعبير عن الغرض أو الأغراض

التي سيق من أجلها الحدث مرة أو مرتين أو أكثر، ولذلك نجد تكرارًا في بعض الأحداث دون غيرها في معظم القصص القرآني.

ج. النسق لغةً: ويعرف ابن منظور (نسق) في كتابه (لسان العرب) بقوله:" النسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، وقد نسقته تنسيقًا، وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض أي تنسقت(8). فالنسق بمعناه اللغوي يعني الترتيب والتنظيم، وأن المعيار في كون النسق نسقًا هو الانتظام بطريقة ما، تكوّن نظامًا محددًا يتسم بخصائص محددة، تفرق بينه وبين نظام آخر، ولذلك فهو مجموعة من العناصر يرتبط بعضها ببعض، بحيث تكون كلاً منظمًا (9)، على نحو يحقق الانسجام بين عناصره.

واصطلاحًا:"نظام ينطوي على استقلال ذاتي، يُشكل كلاً موحدًا، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها" (10)، وعرف بأنه: التسلسل المعنوي بين الأغراض، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض في سياق الآيات القرآنية (11). فهو مفهوم يتضمن النسق والترابط والتناسب بين مفردات النص والموضوع الذي تريد أن تفصح عنه

والفرق بين النسق والسياق : هو أن من معاني السياق: قام فلانٌ على ساقٍ، فالعرب كانوا يذكرون الساقَ إذا أرادوا شدَّة الأمر والإخبار عن هولِه، يقال: (قام القوم على ساقٍ، يريدون الكدَّ والمشقة)، ويكنَّى عن الساق بالنفس، مثلما ورد عن علي بن أبي طالب في حرب الشراة عندما قال: (لا بد لي من قتالهم ولو تلفت ساقي)(12). وفي الاصطلاح:" الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرةً ويتحدد من خلالها المعنى المقصود"(13)، ويبنى عليه وضوح دلالة الألفاظ وتحديد معناها؛ لأن فيه قرائن تعين على ذلك، ولارتباطه بمقام معين يحدد في ضوء القرائن الحالية (14).والسياق القرآني:" هو تتابع المعاني وانتظامها في الألفاظ القرآنية ؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال"(15).

فالسياق له أثر كبير في تحديد "دلالة الكلمة على وجه الدقة وبوساطته تتجاوز كلمات اللغة حدودها الدلالية المعجمية المألوفة لتفرز دلالات جديدة قد تكون مجازية، أو إضافية، أو نفسية، أو إيحائية، أو اجتماعية" (16). والذى يهمنا هو السياق اللغوي أو الكلامي، ويُقصد به: الخطاب بمستوياته اللغوية المعهودة: النحوية والمعجمية والدلالية، فهو الذي يتضمن من القرائن (اللفظية والمعنوية) ما يرشد إلى مراد المتكلم من الخطاب، ولا يكون في سلمه الإجرائي أيُّ نوع مكون خارجي للمعنى والتأويل (17).

ه ـ **الدعاء لغة:** قال ابن منظور:" دَعَاهُ دُعاءً ودعوى، حكاه سيبويه في المصادر التي آخرها ألف التأنيث"(18). **واصطلاحًا:** الدعاء ظاهرة حيّة متجدّدة بتجدّد أحوال الإنسان تجاه خالقه، ومعبرة عن حاجاته ومشاعره، وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى, والتبرؤ من الحول والقوة، واستشعار الذلة البشرية(19).

وعرفه ابن القيم بقوله: "هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه"(20). وقد وردت مادة "دعا" واستعمالاتها في القرآن الكريم نحو مائة وتسعين مرّة ضمن اثنين وسبعين اشتقاقًا (21). وتنوّعت معانيها بتنوّع سياقها التي وردت فيه، وقد اجتهد العلماء في بيان أنواع الدعاء الوارد في القرآن الكريم(22), والخلاصة

في هذا الموضوع أنها لا تخرج في الغالب عن نوعين أساسين هما : دعاء العبادة (التوحيد والثناء)، ودعاء الطلب والمسألة.

وليس هناك أحسن من أدعية الأنبياء الواردة في كتاب الله تعالى, فقد امتازت بالبلاغة والفصاحة والبيان، حيث تخيرُّوا منها أحسن الألفاظ وأنسبها, وأكمل الصيغ وأبلغها، وألطف المعاني وأنبلها, فجاءت أدعيتهم مثالاً لدقة اختيار الكلمة واختيار مناسبتها للقيام بوظيفتها في التعبير عن المراد، أو الوظيفة التي ستؤديها في الدلالة على المعنى، وذلك لأن الله تعالى "علم الدعاء في كتابه لخليقته, وعلم النبيُّ ρ الدعاء لأمته, واجتمعت فيه ثلاثة أشياء: العلم بالتوحيد, والعلم باللغة ، والنصيحة للأمة "(23).

موضوع البحث : لقد كان زكريا عليه السلام ملازمًا للدعاء، مجتهدًا فيه، مبالغًا في وصف نفسه وصفًا دقيقًا معبرًا عن حاله وحال زوجه، وقد أثنى عليه ربه I وعلى ولده وأهله ((إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ..)) الأنبياء:9، وقد أكرمه الله I بإكرامه لمريم، فإنه لما رأى الرزق ينساق إلى مريم ـ عليها السلام ـ بغير حساب، دفعه ذلك إلى أن سؤال ربه أن يرزقه ذرية طيبة، ومن هنا بدأ النداء. يقول الرازي:"الفزع إلى الله تعالى؛ لمكان الرغبة في ثوابه، والرهبة عن عقابه، وثانيهما الخشوع"(24) .

وقد ناجى ربه مناجاة عظيمة سجلها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فقد كان عليه السلام شيخًا كبيرًا مسنًا، وكانت امرأته عاقرًا، فيبدو أنه فقد التعلق بكل الأسباب البشرية إلا المسبب الأعلى، صاحب القدرة المطلقة الله I، وجاء حديث القرآن عن طلب زكريا عليه السلام في ثلاثة مواضع منه، هي على ترتيب نزول السور كالآتي:

الأول : في سورة مريم، قال I: ((ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ (2) إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّا (4) وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّا (6) يُزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰم وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّا (8) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّن وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔا (9) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَال سَوِيّا(10))) .

الثاني : في سورة الأنبياء، قال I: ((وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ (89) فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ(90))) .

الثالث : في آل عمران، قال I: ((هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةٗۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (38) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (40) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (41))) .

ومن خلال تأمل المواضع الثلاثة السابقة نجد أنها تدور حول مضمون عام واحد، يتمثل في طلب زكريا عليه السلام من ربه أن يرزقه ولدًا صالحًا يكون له عونًا في كبره، لكن أنساق التعبير عنه تنوعت، ومن خلال استقراء هذه المواضع على ترتيب نزولها سنرى أن كل سياق منها بدا له أثر واضح في تنوع النسق بين أجزاء النصوص الثلاثة، يمكننا الوقوف عليه من خلال إثارة الأسئلة أو التأملات الآتية محاولين الإجابة عنها بما يفتح الله به:

أولاً ــ ما دلالة استهلال زكريا عليه السلام دعاءه بطلبه أن يهبه مرة وليًا بقوله: ((فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّا)) ومرة ذرية بقوله: ((هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ)) وقال ثالثة: ((وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ)) ؟

ثانيًا ــ ما دلالة التعبير القرآني عن البشرى بالولد مرة بقوله: ((إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)) وأخرى بقوله: ((فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ)) وثالثة بقوله: ((فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ(39))) ؟.

ثالثًا ــ لماذا قدّم زكريا عليه السلام حال امرأته على حاله في موضع مريم ، فقَالَ : ((رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّا)) وأخّره في موضع آل عمران، فقال: ((رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ))؟.

رابعًا ــ لم عبّر بلفظ الليالي في مريم ((ثَلَٰثَ لَيَال)) وبلفظ الأيام في آل عمران ((ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ)) ؟.

وسوف نتعرض للإجابة عن هذه التساؤلات من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول ـ التنوع في استهلال زكريا عليه السلام دعاءه في المواضع الثلاثة .

حيث بدأ دعاءه في موضع مريم بقوله: ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّا (5))) بين موضع الأنبياء بقوله:((رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا)) وبين موضع آل عمران بقوله: ((رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ)) فإن الهبة: عطاء بلا عوض ولا ثمن، والهبة منه عز وجل كمال محض, لأن الإعطاء منه تفضلاً وابتداءً من غير استحقاق ولا مكافأة (25). وقال أبو حيان هي:"إحسان محض ليس في مقابلها شيء يكون عوضًا للواهب"(26). وقال ابن جرير الطبري ــ رحمه الله": يا رب هب لي منك ولدًا يكون من الصالحين الذين يطيعونك, ولا يعصونك, ويصلحون في الأرض في الأرض, ولا يفسدون"(27). وقد آثر زكريا عليه السلام تقديم تضرعه لله معبرًا فيه عن حاجته للولد بالفعل((هَبْ)) لتعبر بعمق على حاجته، ولعلمه أنه لن يكون متسببًا في هذا الولد لكبر سنه من جهة، ولعقر الزوجة من جهة أخرى، فكأن وجوده هبة محضة لا يد له فيها .

أمّا استهلاله في الموضع الأول: فقد ذكر في بداية السورة كل البواعث والأسباب الداعية لسؤاله الولد، ثم توجه إلى ربه مبتهلًا في ضراعة وخفية، شاكيًا حاله، وضعفه، وشيخوخته، معترفًا بأن الله تعالى قد عوده إجابة

الدعاء، فلم يشق مع دعاء ربه وهو في قوته، فما أحوجه الآن وهو في ضعفه وكبره أن يستجيب الله له، فنادى ربه في أسلوب بليغ، وعرض مطلبه الأساسي، وأمله الذي يرجوه من ربه تعالى، قائلاً :((فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّا))؛ ولذا أثنى الله عليه وامتدح طريقته في الدعاء حيث قال: ((ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ (2) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّا (3))) وقد علم زكريا أنه بين يدي ملك الملوك، ومن الأدب والتعظيم له أن يدعو الملك إذا كان بحضرته بكل أدب ممكن .

وجاء التعريف بالإضافة في قوله: ((رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا))؛لتكريم وتشريف المضاف إليه في هذا الموضع، وهو النبي ρ في ((رَبِّكَ)) وزكريا عليه السلام في قوله: ((رَبَّهُ)) وهذه الإضافة توحي بجو من الرعاية والعناية التامة بهذين النبيين الكريمين. والنداء كما قيل:"هو رفع الصوت وظهوره، وقد يُقال للصوت المجرد وإياه عُني بقوله:((إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً)) البقرة: ١٧١."(28). ولقد ((نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّا))؛ لأن النداء خفية أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، وأرجى في القبول، وحيث إن المقام مقام حاجة وافتقار، وطلب مسألة وانكسار؛ لذا كان خفض الصوت بالدعاء أبلغ في التضرع والخشوع، وأدل على القرب من الله I.

قال ابن تيمية عن الأمر بالدعاء خفية في قوله I: ((ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)) الأعراف. بأن الأمر "يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره"(29). وقال بعض أهل العلم (30): إن الإخفاء بالدعاء فوائد عظيمة؛ إذ إنه أعظم إيمانًا وأدبًا، فلا ترفع الأصوات بخضرة ملك الملوك، إذ إن الحق I يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت، وخفض الصوت أبلغ في التضرع والخشوع.

ولعل المقام الذي كان فيه زكريا عليه السلامـ أي مقام صلاته في المحراب ـ استلزم خفض الصوت بين يدي خالقه الذي يتقرب إليه بصلاته ودعائه، والله أعلم .

ومن بديع الأسلوب القرآني في توازن التركيب اللفظي للنسق ؛ ما ورد من تركيب جملة ((رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي)) فإننا إذا أردنا تقديم كلمة ((مِنِّي)) ليصبح مثلاً :((إني وهن مني العظم)) لأختل التركيب، لأن الجملة هكذا توازنت مع حرف التوكيد (إني) في صدر الجملة ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي)) فجاءت لفظة ((مِنِّي)) ــ كما قيل (31)ــ على أحسن ما يكون من بلاغة النظم، حيث جاءت في موضعها الدقيق الذي أضفى على نسق الآية نغمًا إيقاعيًا مميزًا، ولم يكن ليتحقق أيضًا لو قدمت ((مِنِّي)) على كلمة ((ٱلْعَظْمُ)) نحو ((وهن مني العظم))، ولشعرنا بما يشبه كسر نغم الآية وجرسها، حيث أن هذه الكلمة تتناسب وتتوازن إيقاعيًا مع كلمة ((مِنِّي)) مما يجعلها تحقق انسجامًا وتناسقًا وايقاعًا داخليًا موزونًا، وإن أي تغيير في موضعها يحدث اهتزازًا في ايقاعها الداخلي.

وقوله: ((وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبا)) والاشتعال في الأصل هو من "اشتعال النار"(32). وقد قال عنها العديد من المفسرين : بأنها تعبر عن الضعف والشيخوخة، وأنه استعار هنا الاشتعال لانتشار بياض شعر الرأس، وهو من أبلغ الاستعارات، حيث شبه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب بجامع البياض والإنارة، واستعير الاشتعال للانتشار، واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية (33). فجاءت لفظة

الاشتعال في أعلى مراتب الفصاحة. يقول الشوكاني عن وجه البلاغة في الاشتعال "شبه بـه انتشار بياض شعر الرأس في سواده، بجامع "البياض والإنارة" ثم أخرجه مخرج الاستعارة (34) بالكناية (35) ، بأن حذف المشبه به، وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها (36) .

وأن أصل الانتشار للنار، وهو في هذه الآية وفي هذا الموضع أبلغ، وحقيقته كثرة شيب الرأس، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعًا، صارت في سرعة الانتشار كالنار في اشتعالها، وهذا لون من التخييل ، وهو من الاستعارات العجيبة، وكان يمكن لزكريا عليه السلام أن يقول: "قد شِخت"؛ فإن الشيخوخة دالة على وهن العظم وشيب الرأس، لأنها هي السبب في ذلك، ولكنه عليه السلام ترك الحقيقة، وهي قوله: "شاب رأسي" وجاء بالمجاز لما علم أن المجاز أحسن من الحقيقة وأكثر وقعًا في النفس(37) .

لكن للإمام عبد القاهر كلام نفيس في هذه الآية، ذهب فيه إلى أن التعبير هنا ليس لمجرد الاستعارة، بل إن النظم على هذه الشاكلة لم يكن ليتحقق لو أسند الاشتعال إلى الشيب في الرأس الذي هو يفيد الشمول، يعني أنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعمّ جملته حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما يعتد به، وهذا لا يكون إذا قيل (اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس) بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة، ولا يتعدى معناه مجرد بيان وقوع الشيب فيه، وليس بيان وقوع عموم الشيب لجميع الرأس(38). وهذا أرجى في الاستعطاف، وأظهر في بلوغ الغاية من الحاجة للولد (39).

وأقول : سواء كان التعبير على سبيل الاستعارة أو غيرها؛ فإن مما يوحيه هذا التعبير هي الدلالة على الحالة التي وصل إليها زكريا عليه السلام من الضعف في قواه، وقُرب أجله، مما يجعله أحوج إلى المعين والمساعد في الحياة، فدعاؤه عن حاجة ماسة، ورغبة أكيدة ملحة، فكان من المناسب أن يأتي بتعبير يفيد الإحاطة والشمول ليصف الصورة بكل دقائقها وتفاصيلها.

ومن بديع ما نلمسه في هذه الآية أيضًا: إيثار زكريا عليه السلام كلمة ((وَهَنَ)) على غيرها من الكلمات التي تدل على الضعف ككلمة "ضعف" أو نحو ذلك، لما في هذه الكلمة من الخفة والسهولة في النطق، ودقة تصويرها للضعف الذي لحق به، وكأن الضعف وصل به إلى المنتهى، وأن الوهن ــ كما ذكر ابن منظور ــ يراد به الضعف، ورجل واهن: ضعيف لا بطش عنده (40). ومنه إشارة القرآن إلى ضعف المرأة أثناء حمله بقوله: ((وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ)) لقمان 14، وقد آثر زكريا عليه السلام اللفظة الدالة بعناية على حاله، وهي الكلمة التي أشار الله تعالى بها إلى ضعف بيت العنكبوت حين قال: ((وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)) العنكبوت: ٤١. مع تأكيده عليه السلام اللفظ بـ"إن" وإضافتها لياء المتكلم لإفادة الحرص على تأكيد كلامه، فقال ((مني)) ولم يقل ((عظمي))؛ لمزيد تأكيد؛ وللدلالة على المقصود هنا؛ وإبرازًا له للاعتناء بالمضمون ورغبة لتحقيق المطلوب، والله أعلم .

وقوله: ((فَهَبْ لِي)) " أي العلم والدين والنبوة.. وقيل يرثني الحبورة، وكان عليه السلام حبرًا"(41). وقد ذكرت الفاء هنا في لفظة: ((فَهَبْ)) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فمع ذكره للأسباب المانعة لحصول الولد من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة، نراه عليه السلام لم يقطع رجاءه بالله، خاصة وهو يرى إنعام الله وتفضله على مريم، فما كان منه إلا أن رتب منحة الله له الولد على كونه هبة خالصة من عند الله I، وقد عطف بالفاء دون

الواو؛ لإظهار شدة الحاجة للولد، ورغبته الملحة في سرعة حصوله دونما تأخير، مع ما توحيه حروف الفعل ((هَبْ)) من الرغبة في سرعة الإجابة أيضًا، ذلك الفعل المكون من حرفين اثنين ينطق بهما اللسان دفعة واحدة بلا تباطؤ، والله أعلم.

وأمّا قوله ((مِن لَّدُنكَ)) فقد قيل: جاء تأكيدًا لقوله: ((وَلِيّا)) ، وليكون مضافًا إلى الله تعالى وصادرًا من عنده، وتأخير ((ذُرِّيَّةً)) عن قوله: ((لِي مِن لَّدُنكَ)) ؛ لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا ما أُخِّر تبقى النفس متشوقة له، مترقبة لوروده، ولأن حصول الذرية في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب جاء التأكيد بقوله: ((مِن لَّدُنكَ)) أي بمحض إرادتك من غير توسط شيء من تلك الأسباب(42). وقد ذكر الزمخشري بأن بلاغة الأسلوب الدعائي في هذه الآية نفسها أن قُدم الجار والمجرور ((مِن لَّدُنكَ)) وذلك لتأكيد كونه وليًّا مرضيًّا بكونه مضافًا إلى الله تعالى وصادرًا منه(43). ولعل منح الولد مع اجتماع موانعه من كبر السن والعقم يُعد أمرًا خارقًا للعادة، ومظهرًا من مظاهر عظم قدرة الله، وجليل صنعه، لذلك كان التعبير بـــ ((لَّدُنكَ)) التي هي أخص من لفظة (عند) لأن هبة الولد لزكريا مع كبر سنه وعقم زوجه فيه منحة وخصوصية من المولى Ψ، والله أعلم .

وذهب أبو السعود إلى أنه أخر ((وَلِيّا)) عن ((لِي مِن لَّدُنكَ)) في موضع مريم، لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقدير إذا أُخِّر تبقى النفس مستشرفة له، وعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن(44). وذهب ابن عاشور أن مما دعا إلى تقدم لفظ ((لِي)) على ((مِن لَّدُنكَ)) لأنه: "الأعم في غرض الداعي، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام"(45). ومثل هذا ورد على لسان موسى عليه السلام عندما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون معاونًا: ((وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي)) فقدم ((وَزِيراً)). المفعول الثاني لـــ ((وَاجْعَل)) على ((هَارُونَ)) المفعول الأول؛ لعظم أمر الوزارة ولاهتمامه بها ،كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء(46).

وبعدُ؛ فقد استهل زكريا عليه السلام دعاءه في موضع مريم استهلالاً عظيمًا، حين بدأ بنداء الرب تبارك وتعالى محذوفًا منه حرف النداء؛ إيماءً إلى قرب الله تبارك وتعالى منه، وإظهارًا لضعفه، وطلبًا لاسترحامه، وابتهالًا منه ضراعة وخفية قائلًا: ((رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي)) ثم ذكر في دعائه أمورًا يستحق بها الرحمة والشفقة، منها: وهن عظامه وهو ضعف باطن ، وإن كان أثره على الجسم ظاهرًا، وشيب رأسه وهو ضعف ظاهر بين للناظرين، كل ذلك دل على أنه قد طعن في السن، ولا بد أن يرافق هذا الضعف وذاك غيره من مظاهر الضعف الأخرى، كضعف النظر، وبطء الحركة، وقصر الأمل، وغير ذلك مما يلازم تقدم السن، غير أنه ربما لم يكن ليسع المقام ذكر هذا كله، فاقتصر على الأبرز والبين منه، ثم أعقبه بطلبه مباشرة، وعِلْم ربه بحاله كله يغني عن تفصيل ذلك، والله أعلم .

أمّا استهلاله في موضع الأنبياء بقوله: ((رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا)) أي:"وحيدًا بلا ولد يرثني..ولو كان المراد بلا ولد يصاحبني، ويعاونني لقيل: وأنت خير المعينين"(47). ونلحظ في هذا الموضع أنهعليه السلام أطلق الفرد على من لا ولد له، تشبيهًا له بالمنفرد الذي لا قرين له، فشبه من لا ولد له بالفرد، لأن الولد يصير مع أبيه كالشفع، لأنه كجزء منه، وجملة: ((رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا)) مبينة لجملة ((نَادَىٰ رَبَّهُ))؛ (48). فكأن المعنى: لا

تذرني كالفرد الذي لا قرين له، والجامع بينهما (الوحدة)، وفي هذا حرص من زكرياعليه السلام على الأنس بالولد وأن يكون له وارثًا.

ولما أراد بلفظ: ((لَا تَذَرْنِي فَرْدًا)) الولد ختم بقوله: ((وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ)) فقد شبه من لا ولد بالمنفرد الذي لا فرد له(49). والوارث الحقيقي هو الله I وهو الباقي بعد فناء خلقه، وأن قوله: ((وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ)) ــ كما ذكر ابن كثير في تفسيره ــ هو دعاء وثناء مناسب للمسألة (50). وذكر الألوسي في معنى ((وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ)) بأن فيه مدح له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفى ذلك استمطار لسحائب لطفه I (51). وذكر جلُ المفسرين أن المقصد من ذلك أن يرث علمي ونبوتي، ويرث من أجداده آل يعقوب العلم والنبوة، فيكون نبيًّا، داعيًا إلى الله قائمًا بدينه (52).

وقال البقاعي:" لما كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطنٍ لم يعهد الخروج منه قبل، عطف عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولدًا من بطنٍ لم يعهد الحمل من مثله، في العقم واليأس"(53)، فجاءت الآية مناسبة لموضعها دقيقة في مكانها الذي يليق بها. وفائدة مثل هذه المناسبات ــ كما ذكر الزركشي ــ أنك تجد الكلام بعضه آخذ بأعناق بعض، قوي الارتباط، محكم البناء، متلائم الأجزاء (54). والمعنى: واذكر يا محمد زكريا حين نادى ربه فقال:رب لا تتركني وحيدًا بل لي ولد(55). ولا يخفى طبعًا ما في حذف حرف النداء من ((رَبِّ)) وحذف ياء المتكلم من بداية الكلمة من إيجازٍ، يوحي بشعور الداعي بقربه من ربه Ψ ، كما أن تكرار النداء في هذه الآيات فيه مزيد من التضرع، والابتهال، والاسترحام، ورجاء إجابة الدعاء.

وقد جاء بلفظ ((فَرْدًا)) ليلتقي دلاليًا مع لفظ ((ٱلْوَٰرِثِينَ)) حيث نشأت بينهما علاقة تضاد، فكأنه قال كما ذهب بعض علماء التفسير: لا تذرني فردًا، خلاف الوارثين، فمن كان فردًا، هو عكس من يورث؛ إذ إن حاله عكس حال من له ولد وذرية (56). وبذلك وقع تناسب كبير في معاني النص بين لفظ ((فَرْدًا)) وما يضاده وهو لفظ ((ٱلْوَٰرِثِينَ)) ، فمهد للفاصلة أفضل تمهيد، وجاء المعنى يقرر الرضا بحكم الله بعد بيان الطلب؛ ويؤكد أن الوارث الحقيقي هو الله I، وليس الولد والذرية المنشودة، فليس أحد فردًا في ظل إيمانه بربه، فوقعت الخاتمة على أحسن ما يكون ملائمة مع المقدمة لها، ثم أضاف لفظ ((خَيْرُ)) هنا؛ لإظهار الأفضلية والخيرية في الرحمة والغفران والرزق؛ فالله I هو خير من يتفضل على عبده بتحقيق هذه المطالب منة منه وكرمًا، والحمد لله .

أمّا موضع آل عمران فقد استُهل بقوله: ((هُنَالِكَ)) ، أي: في ذلك الوقت وفى المكان نفسه، وزكريا عليه السلام يشهد الكرامة العجيبة التي حدثت لمريم ـ عليها السلام ــ في المحراب مكان الطاعة والعبادة والرحمات والبركات والنفحات، فتوجه من فوره بالدعاء، راجيًا من المولى I أن يرزقه الذرية الطيبة، معلقًا رجاءه بقدرة الله ورحمته ولطفه، بأن يرزقه الولد على غير حينه،كما رأى الفاكهة في غير حينها عند مريم.

وأقول هنا : لعل زكريا عليه السلام كان عند مريم ــ عليها السلام ـــ عندما دعا ربه، ولذلك عبر النص القرآني بقوله: ((هُنَالِكَ)) دون غيره من أسماء الإشارة؛ ولكونه يدل على الزمان والمكان، فمن دلالته على المكان قوله تعالى: ((فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ)) الأعراف 119، ومن دلالته على الزمان قوله تعالى: ((هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ)) الكهف 44. فيمكن حمل الاسم على المكان، وإن حمل على الزمان أيضًا باعتبار أنه

دعا ربه في زمان جلوس مريم عند المحراب فلا بأس ـ في تقديري ـ لأنه عبر عما اختار به الزمان والمكان الأفضلين، وهذا أرجى للإجابة. يقول الرازي عن إمكانية حمل اللفظ ((هُنَالِكَ)) في هذا السياق على الزمان:"وإن حمل على الزمان فهو جائز يعني: في ذلك الوقت دعا ربه" (57).

أمّا المراد بكلمة ((ذُرِّيَّةً)) أي النسل، وهي كلمة تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى، وتأنيث ((طَيِّبَةً))لتأنيث الذرية في الظاهر، فالتأنيث والتذكير في أسماء الأجناس تارة يجيء على اللفظ، وتارة على المعنى(58). وقد وصف زكريا عليه السلام الذرية الطيبة لأنها هي التي يرجى منها خيري الدنيا والأخرة.

قال الرازي: لأن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى: أريد منك إلهى أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة، وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من الأسباب(59). والولد الصالح من الذرية الطيبة الذي تطيب به النفس، ويبتهج الفؤاد وتقر به العين، فيوافق ما يتمناه أبواه ويرجوانه له من الصلاح، وبذا يتبين سبب تخصيص الأنبياء في طلبهم للذرية وإقرانها بالصلاح، وأن تكون ذرية نافعة طيبة، كما جاء في قول زكريا: ((ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)) ، وكما في قوله سبحانه: ((وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي)) الأحقاف:15. وكقول إبراهيم عليه السلام ((رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)) الصافات. رغبة منهم في الكمال وتمام الخير، ولأن الذرية من مباهج الدنيا، لاسيما إن كانت صالحة طيبة. قال ρ فيما رواه أبو هريرة ψ:(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له)(60). فكان التعقيب هنا بالفاء في قوله : ((فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ)) للدلالة على السرعة في استجابة دعائه عليه السلام (61)، مع ملاحظة تقيد الفعل ((يُبَشِّرُكَ)) للدلالة على خصوصية هذه البشرى لزكريا عليه السلام، والله أعلم .

المبحث الثاني : تنوع التعبّيرعن البشرى .

قال الله تعالى في موضع مريم : ((إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)) وفي موضع الأنبياء : ((فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ)) وفي موضع آل عمران : ((فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ(39))) .

أمّا في موضع مريم فيأتي الجواب من قِبل الله I ((إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)) لم نجد له شبيهًا من أهل عصره في أحواله وصفاته، أو لم نجعل له من قبل من يشاركه في هذا الاسم. قال الزمخشري:"لم يسم أحد بيحيى قبله، وقيل: ((لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)) مثيلاً وشبيهًا كقوله في السورة ((رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)) وإنما قيل للمثل: سمي؛ لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثيل والشبيه والنظير"(62) .

وفي موضع آل عمران يذكر المولى I أن الملائكة نادت على زكريا عليه السلام وهو يصلي في المحراب، ذلك المكان الطاهر المبارك، وبشرته ببشارة عظيمة، بشرته بغلام يدعى يحيى ، يكون سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين. قال ابن كثير: "خاطبته الملائكة مشافهة خطابًا أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته "(63).

ولعل البشارة بولادة يحيى عليه السلام من شيخ كبير وأم عجوز عاقر؛ جاءت تمهيدًا لآية أعجب، وهى ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، مع القرب الزمنى بين الحدثين المتعاقبين حيث ولد يحيى وبعده عيسى عليه السلام، وقد اختلف المفسرون في المراد بالملائكة هنا: هل هم جمع منهم أم أن المراد جبريل عليه السلام ؟ وظاهر النص يفيد أن المنادى جبريل(64). وذهب الألوسي معلقًا على هذا الرأي بأن الجمع هنا مجاز عن الواحد للتعظيم، أو يكون هذا من إسناد فعل البعض للكل(65). وقوله: ((أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ)) .ذِكْرُ المبشر به وهو يحيى عليه السلام يدل على أنه ذَكر، وعلى أن المولى عز وجل قد اختار له هذا الاسم الطيب المبارك. وقوله: ((مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ)) مؤمنًا بعيسى عليه السلام، قيل أن يحيى عليه السلام هو أول من آمن بعيسى عليه السلام وقيل ((مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ)) أي مؤمنًا بكتاب منه تعالى(66).

وقد كان كما قال ربه ((وَسَيِّدًا)) كريمًا، شريفًا، يسود الناس بفقهه وعلمه وحلمه وحكمته وهمته وزهده وقوته في الحق(67)،((وَحَصُورًا)) حصر نفسه أي: حبسها ومنعها من الهمم الدنية، وقيل: هو الذى لا يأتي النساء لا لعجزه عن ذلك، وإنما لزهده وانشغاله بالطاعات والقربات (68). وذكر الزمخشري أنه لا تعارض بين المعنيين وإن كان الأول أولى لأن الزواج هو سنة الأنبياء عليهم السلام، وسياق الكلام يدل على البشارات التي ساقتها الملائكة لزكريا عليه السلام لتدخل على قلبه السرور، والحصور صفة مدح وكمال لا صفة ذم ونقصان، ((وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)) فقد جمع عليه السلام بين النبوة والصلاح، فالأنبياء هم أشد الناس صلاحًا واستقامة على منهج الله(69).

ومناسبة هذه الصياغة بذكر الاسم في كلا الموضعين ــ في نظري ــ هو التلازم الواضح بين قصة مولد يحيى عليه السلام وقصة مولد عيسى عليه السلام في سورتي مريم وآل عمران، وكأنها إشارة إلى أن القصتين قضية واحدة تتعلق بشأن أسرة آل عمران، فترى السورتين تتناوبان في إظهار بعض المعاني وإخفائها، فما خفي هنا يظهر هناك والعكس صحيح، بحيث أنك لن تلم بالصورة والموقف ويتم لك المعنى ويكتمل وتدرك العلاقات إلا باستحضار ما تشابه في السورتين .

ومما يعزز هذا التناسب ويعضده أن لفظ (الغلام) ورد في مثل هذه المواقف من سورة مريم؛ في تبشير زكريا عليه السلام((يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)) مريم. وكذلك ورد في تبشير مريم بعيسى عليه السلام ((قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)) مريم. وقد جرى لفظ (الغلام) على لسانها اتباعًا لجبريل عليه السلام، وعلى هذا؛ فلفظ (الغلام) هو الأنسب المعبر عن زكريا عليه السلام، لأنه كان متعلقًا بأن يرزق غلامًا قويًا يجدد دين آبائه وأجداده ، والله أعلم .

بينما لم يرد لفظ (الغلام) على لسان مريم في آل عمران، واختفى ذكره في تبشير الملائكة لزكريا عليه السلام قبلها: ((فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ(39))) آل عمران، ولا على لسان الملائكة حين بشرت مريم عليها السلام: ((إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45))) آل عمران .وقد أفادت هذه الآية أن المبشر به يحيى عليه السلام سوف يولد ويكبر حتى يصير غلامًا، وفى قوله تعالى : ((لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)) وأن هذا الاسم لم يسمَّ به أحد قبل يحيى عليه السلام ،

واختيار هذا الاسم ليحيى نعمة وهبة من الله((وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ)) فالمسمى والاسم هبة ونعمة من الله I، وقد أحياه الله من بين شيخٍ كبير وعجوزٍ عاقر لا أمل في إنجابها .

وفي سورة الأنبياء عبّر بالفاء: ((فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ)) وهذا يدل على التعقيب المفيد لسرعة الجواب. وقد استجاب المولى عز وجل لزكريا عليه السلام وأصلح زوجه للحمل والولادة وأثنى سبحانه على زكريا ويحيى وامرأة زكريا بأنهم : ((إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)) أي: يبادرون إلى فعل الطاعات، ((وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)) ويجمعون بين الرغبة والرهبة، وبين الخوف والرجاء، وهذه حال المؤمن ((وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)) بقلوبهم وأبدانهم خاشعين لربهم ضارعين له .

ولعلك تتأمل هنا تعاقب الأفعال: ((فَٱسْتَجَبْنَا ... وَوَهَبْنَا ... وَأَصْلَحْنَا)) لتجد ـــ فوق اتصال الفعل الأول بالفاء الدال على سرعة الاستجابة كما مر بنا ـــ كذلك التعبير بالفعل الماضي الدال على تحقق الوقوع، بل إن عطف الهبة على الاستجابة السريعة ليفيد تحقق هذه الهبة وتأكيد وقوعها، ولعل تقديم الجار والمجرور في قوله : ((فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ)) ((وَوَهَبْنَا لَهُۥ)) ((وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ)) فيه مزيد تشريف وتخصيص له عليه السلام، بل ومزيد عناية واهتمام من الحق I بأمر زكريا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنه I شرّف الهبة بعد تشريفه للموهوب، فخصصها وعرّفها وأسماها قبل أن تكون! بإبرازه اسم:چ و چ فأي تشريف وأي تكريم أعظم من ذلك! إنه تشريف الرب الكريم لأنبيائه الكرام، والحمد لله.

المبحث الثالث: دلالة التناوب بين تقديم وتأخير زكريا عليه السلام حال امرأته على حاله في موضعي مريم وآل عمران .

حيث قال في موضع مريم: ((أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (8))) وأخّره في موضع آل عمران، فقال: ((قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ)) .

صحيح : عندما نتأمل النسق الذي جاء عليه الدعاء في موضعي آل عمران ومريم، نجد أن زكريا عليه السلام قدَّم حال نفسه وأخر التعبير عن حال امرأته في آل عمران قائلًا: ((قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ)) أما في مريم فقد عكس ذلك مقدمًا حال امرأته على حال نفسه قائلًا: ((أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (8))) فقدَّم هنا ذكر الكبر على ذكر المرأة، وهذا قد يكون من باب كون الذكر مقدَّم على الأنثى، فناسب أن يقدم كِبره هنا، ووجه ذلك: أنه صدْر الآيات في موضع مريم مطابق لهذا التركيب، لأنه قدم وهن عظمه، واشتعال شيبه، وخيفة مواليه من ورائه، وقال: ((وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا)) فلما أعاد ذكرهما في استفهام آخر ذكر الكبر ليوافق عتيًا.

وأضيف : من خلال استقراء كل موضع سنرى أن كل سياق أو مناسبة لكل موضع منها ،كان له أثر واضح في تنوع النسق بين أجزاء كل نص، ذلك أن موضع مريم جاء فيه تقديم مناجاة زكريا عليه السلام ربه بذكر حاله قبل سؤاله الذرية ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي)) وكان هو الموضع الأسبق نزولاً، وأمّا موضع الأنبياء فلم يكن فيها ثمة خطاب بين طرفين إنما جاء الأمر على الحكاية ((وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ... فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ)) فقد استجاب الله دعاء زكريا حيث وهبه ولدًا من رحمٍ لا ينجب كما استجاب قبله دعاء ذي النون وأخرجه من

رحمٍ مُظلم ! وأمّا سياق موضع آل عمران (وهي آخر السور نزولاً في الثلاثة) فجاء فيها الخطاب في سياق التعجب من بشرى الملائكة لزكريا عليه السلام ((أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ)) فجاء الدعاء مباشرًا في موضع آل عمران من دون أن يبيّن وهن عظامه وثورة الشيب في رأسه، وذلك لأن الدعاء هنا جاء مسبوقًا بما هو معجز من أمر رزق مريم فكان ذلك موحيًا لزكريا أن من قَدر على إنزال الطعام والرزق في غير وقته، قادر أن يهب الذرية ولو بعد حينها ؛ ثقة منه بالله وسرورًا بما رآه من نعمة كرمه ورعايته I.

وعن قوله: ((أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ)) فيقول النسفي في وجه دلالة الآية: أن استبعاد زكريا عليه السلام لإنجابه الذرية إنما هو" استبعاد من حيث العادة، واستعظام للقدرة لا تشكُّك"(70). والحاصل أن زكريا عليه السلام دعا ربه بإخلاص كعادة الأنبياء((إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّا)) مقدمًا بين يدي المناجاة أبلغ عبارات الضعف والحاجة لربه وبيان أسباب طلبه، فاستجاب المولى Ψ لدعائه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والصلاح عنه، وكانت الاستجابة مفاجأة لزكريا عليه السلام فقال عليه السلام مقالته متعجبًا من هذه البشارة ومتسائلاً عن كيفية تحققها ووقوعها وقد بلغ من الكبر مبلغًا؟ فاجتمعت لديه ثلاثة موانع: كون امرأته عاقرًا منذ شبابها، وكونه قد بلغ من الكبر عتيًّا، وكذلك زوجه .

وفى مريم ((قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّا (8))) وقوله :((عِتِيّا)) العتي هو النهاية في الكبر وليس اليبس، ((مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّا)) السن الذى تعتو فيه العظام والمفاصل، أي: تيبس وتجف وهو حال لا سبيل لإصلاحها ومداواتها. ورغم أنه كان من الطبيعي وفق هذا الترتيب أن يأتي تعجبه بتقديم نفسه أولاً ، لكن النسق القرآني عدل عن ذلك إلى تقديم المرأة وتأخير الرجل ((وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّا)) **وذلك لسببين:** الأول ــ وهو الذي قال به ابن الزبير ــ أن نسق رؤوس الآيات في مريم وفواصلها ((زكريا، خفيًا، شقيًا، وليًا، رضيًا، سميًا)) يناسبها ما جاء في هذه الآية((عِتِيّا)) فقد أخّر الكِبر ليناسب ((عِتِيّا)) وهذا باب مقصود في الفصاحة يترجح إذا لم يُخل بالمعنى، والعطف هنا بالواو ((وَقَدۡ بَلَغۡتُ)) ليس للتقديم والتأخير، وإنما هذا من باب تقديم المناسب في فصاحة الكلام، وأن مقاطع آي سورة مريم وفواصلها استدعت ما يجري على حكمها ويناسبها من أول السورة إلى قوله في قصة عيسى عليه السلام ((وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا)) مريم. لم تخرج فاصلة عن هذا المقطع ولا عدل بها إلى غيره، ثم عادت إلى ذلك من قوله: ((وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا)) إلى آخر السورة، فاقتضت مناسبة آي هذه السورة ورود قصة زكريا عليه السلام على الترتيب والسياق المذكور. أما آية آل عمران فلم يتقيد ما قبلها من الآيات وما بعدها بمقطع مخصوص، فجرت على مثل ذلك(71). وقد أشار الكرماني إلى ذلك في الحديث عن موضع مريم(72) وتبعه الأنصاري(73) وابن جماعة (74).

أمّا السبب الثاني: وهو الذي أقولُ به ــ والله أعلم بمراده ــ لأن السبب الأول غير كافٍ ــ في أغلب ظني ــ إنما يرجع إلى أن الأسباب التي أوردها زكريا عليه السلام في صدر الآيات كلها أسباب تتعلق به هوَ، وتدل على الضعف وكبر السن ولكنها لا تشير إلى صعوبة أو استحالة تحقق الإنجاب معها، في مقابل السبب المتعلق بزوجه (العقر) هو الأقرب؛ لاستحالة حصول الولد معه في عرف البشر، فناسب هذا تقديم تعجبه بذكر السبب الأقرب إلى استحالة إمكانية حصول الإنجاب معه (وكانت امرأتي عاقرًا) وكلا الرأيين لا تعارض بينهما ــ من وجهة نظري ــ فإن موقفي من تعليل الفواصل موقف القبول ما لم يؤثر على المعنى ، أو يكتفى به توجيهًا، لأن

انسجام الكلمات على ما هي عليه من الفواصل أمر مقصود ويحدث تأثيرًا عميقًا لدى المستمع، بجانب ما تؤديه من دور في تشكيل المعاني المقصودة، والله أعلم.

لكن يبقى سؤال: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا قدّم نفسه إذن في موضع آل عمران على عكس هذا الموضع قائلاً: ((قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ)) ؟ .

في قوله: ((وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ)) يؤكد حال الاستبعاد حيث ذكر كِبر نفسه مع كون زوجه عاقرًا، ويؤكده بقوله: ((أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ))حيث قصد من هذا الاستفهام الاستبعاد أو الاستعظام أو التعجب، كما يمكن حمله على الحقيقة إذ يمكن أن السؤال عن حقيقة الحدوث(75). ونلحظ أن عليه السلام اكتفى بما قدمه قبل رجائه في موضع مريم فلم يذكره في موضع الأعراف، والاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من النكت التنزيلية (76).

والظاهر ــ والله أعلم ــ أنه لما كانت سورة آل عمران آخر السور الثلاثة نزولاً وكان قد وصل الحال من الكبر بزكريا مبلغه حيث قال ((بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ)) ولا يخفى ما يفيده هذا التعبير من ذكر لحال الاستبعاد والاستعظام أو التعجب، في مقابل ((بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا)) من تمكن الكِبر منه أعظم تمكن بحيث يمتنع معه الإنجاب، فصار كأنه مساويًا للعقر الذي بامرأته، لأجل ذلك قدمه إما من باب التساوي مع حال امرأته أو تقديم حاله الأصعب قبل حال امرأته، والله أعلم

وهذا الأمر الذى يتعجب منه زكريا عليه السلام ويقف أمامه مشدوها ومبهورًا هو أمر هين يسير على الله عز وجل. قال الإمام القرطبي: أي كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئًا موجودًا فهو القادر على خلق يحيى وايجاده(77). فكان جواب الحق Ψ عن تساؤل زكريا عليه السلام في آل عمران ((قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ)) وفي مريم : ((قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا (9))) جوابًا شافيًا كافيًا، فهذا العطاء العجيب وهذه الآية الخارقة مندرجة ضمن مشيئته I وهى أمر هين يسير أمام المولى القدير الذى نقلك من العدم إلى الوجود . وقوله في آل عمران: ((قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ)) أي: يفعل الله ما يشاء أن يفعله من الأفعال العجيبة الخارقة للعادة فعلاً، مثل ذلك الفعل العجيب، والصنع البديع الذى هو خلق الولد مع الحالة التي يستبعد معها الخلق بحسب العادة(78). ولا يخفى ما فى التعبير بلفظ الجلالة من إفادة الهيبة والعظمة والروعة والجلال.

والتعبير في مريم بقوله: ((قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّن)) فإن وصف الربوبية فيه دلالة بالغة على إبراز جلال الربوبية في هذا المقام، إذ إن الرب هو الخالق المدبر المصرف لشئون خلقه، وكما خلق عز وجل عبده زكريا عليه السلام من العدم فهو سبحانه قادر على أن يرزقه الولد مع كبر السن وعقم الزوجة، والرب هو القدير الذى لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء وقدرة المولى عز وجل قدرة مطلقة لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود، وهذا الأمر يقع بتدبير الله تعالى لزكريا فلا يحتاج إلى طبيب ولا دواء، والرب هو الرحيم اللطيف والاستجابة لدعاء زكريا من لطف الله تعالى به ورحمته له، والربوبية من التربية والرعاية وهذا المعنى في هذا السياق واضح جلي، والله أعلم .

أمّا ما جاء في موضع الأنبياء فمن الضروري التفريق بين الكلام الصادر عن الله تعالى، والصادر عن البشر، لأن سياق هذا الموضع مختلف عن المواضع الأخرى، حيث ورد في سياق حكاية الله I عن دعاء مجموعة من الأنبياء على الترتيب (أيوب، ويونس، وزكريا) واستجابة الله لدعاء كلٍّ منهما، فقدّم الله I حصول تحقق الإجابة وهبته زكريا ولدًا اسمه يحيى ثم ذكر ((وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ)) **فكيف وإصلاح الزوجة يأتي أولاً قبل الولد ؟ وهذا سؤال آخر.**

قيل: ((وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ)) أي وأصلحنا لزكريا امرأته العقيم فجعلناها ولودًا صالحة للحمل، وهذا ما عليه أكثر المفسرين(79). وذهب الرازي إلى أن في تفسيرها ثلاثة أقوال: أحدها: أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة، وهذا أليق بالقصة. والثاني: أنه أصلحها في أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه. والثالث: أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيًا إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعًا وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح الله فلانًا، فالأظهر فيه ما يتصل بالدين(80). وأميلُ إلى ما ذهب إليه أكثر أهل العلم، وهو أن المقصود بإصلاح الزوجة تهيئتها للحمل والإنجاب ؛ لأن المقام يتحدث عن ذلك، وليس هناك داعٍ لعلل أخرى لا دليل عليها.

ويبقى السؤال المتعلق بعلة تأخير ذكر إصلاح الزوجة على هبة الولد قائمًا: وللحق أنني قد ذهب في هذا إلى القول بأن الله تعالى إذا كان قد وهبه الآن ؛ لا يلزم منه حصول الحمل الآن، وليست استجابة الله لدعاء زكريا إلا على سبيل ما سيتحقق مستقبلاً، وأن إصلاح الزوجة يكون تمهيدًا للحمل الذي أذِن الله به، وأن الواو لا تفيد هنا ترتيبًا، وإن أفادت فإن الترتيب المتعلق بالأسباب إنما يكون في عرف البشر الذين يبنون تحقق المأمول على توفر أسبابه، أمّا عند الله تعالى فأي أساب تعيق تحقق ما يريده الله ؟! إنما كان الأمر متعلقًا بدعاء زكريا وحسب، فلما سأل ربه بإلحاح أعطاه، فلا تسل عن الأسباب لأنها تنتفي إذا كان المجيب هو الله، ويكون قوله: ((وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ)) من توابع إجابة الدعاء وليس من أسباب تحقق الإجابة .

وهذا الرأي كان قبل أن أقف على كلام نفيس يزيل هذا الإشكال في هذه المسألة للدكتور صفوت الخطيب في كتابه (درسات في بلاغة القرآن والحديث النبوي)، وقد آثرتُ إبقاء رأيي وعدم حذفه ؛ عملاً بأن النص القرآن حمّال أوجه، تتعدد عنده الوجوه بتعدد الآراء, وأنه يسع الجميع ـ والله هو الأعلم بمراده ـ وأمّا عن رأيه : فقد ذهب إلى أن هذا الترتيب منطقي جدًا؛ لأن عملية الإنجاب منوطة بالذكر بالدرجة الأولى، بدليل قوله تعالى: ((نِسَاؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ)) البقرة: ٢٢٣. ولذلك كان من الضروري أن يقدر الله تعالى الهبة لزكريا عليه السلام أولاً، وخاصة أنه بلغ من الكبر عتيًّا، ثم يلي ذلك إصلاح موضع الحرث، إذ كانت امرأته ((عاقرًا)) مريم: ٥. فكيف إذا أصلح له زوجه ولم يكن قد وهبه ؛ أكان يغني ذلك عنه شيئًا ؟! فسبحان من قدّر ورتب((وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ)) الرعد .

المبحث الرابع ـ عن التعبّير بلفظ الليالي في موضع مريم ((ثَلَٰثَ لَيَال سَوِيّا)) وبلفظ الأيام ((ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ)) في موضع آل عمران.

حيث طلب زكريا عليه السلام آية من المولى Ψ، أي علامة تدل على وقت حدوث الحمل ليس شكًا في هذه البشارة وإنما شغفًا ولهفةً على معرفة وقت حدوث الحمل، فتلك أعظم لحظات الفرح والبهجة لمن طال انتظاره للولد، وكذلك ليبادر إلى شكر الواهب جل وعلا، وقد أجاب المولى I زكريا عليه السلام فيما طلبه، فأعطاه الآية الدالة على وقوع الحمل وهذه الآية هي امتناعه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن، فلا يتكلم إلا بالإشارة والايماء. قال الزمخشري: "علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوى الخلق ما بك خرس ولا بكم"(81).

ومنع زكريا عليه السلام من الكلام لحكمة بليغة، حيث للصمت فوائده العديدة، من راحة النفس وهدوء البال وسكينة القلب وانطلاق الفكر وصفاء العقل، ومن هنا فمنعُ زكريا عليه السلام من الكلام من تمام نعمة الله عليه ورعايته له، كذلك إذا كان الكلام نعمة عظيمة تدل على قدرة الله تعالى كما قال: ((فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))) الذاريات، كذلك امتناع السليم من الكلام آية عجيبة.

قال السعدى:"ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذه آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام"(82). والأمر الذي يتعلق بذكر (الأيام والليالي) حيث وردت الأولى في آل عمران: ((أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ)) والثانية في مريم : ((أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَال سَوِيّا)) فإنه لا يسلم لك المعنى إلا بالجمع بين ما جاء في السورتين أو السياقين: ثلاثة أيام بلياليها، وثلاث ليال بأيامهن. وفي ذلك يقول زكريا الأنصاري:"كل منهما مقيد بالآخر، فلابد من الجمع بينهما"(83). والجمع بين الأيام والليالي في لفظٍ واحدٍ حين نعتبر السياقين أمر محتمل.

وقد قال ابن الزبير الغرناطي عن وجه اختصاص كل موضع بلفظه هو" أن في آية آل عمران يذكر الأيام ليناسب: ((إِلَّا رَمۡزٗاۗ)) إذ الرمز ما يفهم من المقصود دون نطق كالإشارة بالعين وباليد، وقال مجاهد بالشفتين، وكيفما كان فإنما يدرك بالعين، ولما لم يذكر الرمز في آية مريم ذكر فيها الليل"(84). والرمز: تصويت خفي باللسان كالهمس، والرمز إشارة وإيماء باليدين والعينين والحاجبين والشفتين(85). وقد أفاد تغاير التعبير في الآيتين ــ على الرغم من توحد المضمون ــ دلالة استمرار المنع من الكلام في تلك الأيام الثلاثة مع لياليها(86). ولعل السر وراء الاكتفاء بذكر الأيام في سورة آل عمران والليالي في سورة مريم، هو أن الدعاء في موضع مريم ورد في سياق الإخفاء والإسرار بالدعاء، الذي يناسبه الخشوع ، والخشوع يناسبه خفض الصوت، حيث قال: ((إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّا (3))) مريم: ٣. فكان ذِكرُ الليالي في هذا الموضع (أي موضع مريم) أنسب، أمّا مقام الحديث في موضع آل عمران فإن التعبير فيه بالأيام أنسب ؛ حيث دار حوار بين بين زكريا عليه السلام ومريم عن أمر الرزق الذي يأتيها في غير موعده، وهذا أمر معاش ليس كأمر العبادة السرية ؛ فناسبه ذكر الأيام، والله أعلم.

وفي الآية الأولى جاء لفظان من ألفاظ هذا الحقل هما (العشي والإبكار) يرتبطان من حيث الزمن الذي يقعان فيه بعلاقة دلالية هي التضاد، إذ العشي آخر النهار، والإبكار أوله(87). وهو تضاد أوحى السياق من خلاله بدلالة الأمر بالاستمرار في ذكر الله وتسبيحه، والمداومة عليه (88). وقد تعززت هذه الدلالة بقوله I : ((وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا)) "أي : ذكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا"(89). ثم إنك لتلحظ أن في سورة مريم ذكرت الليالي

وهى مؤنثة نسبة لمريم (الأنثى)، وقدمت الأنثى العاقر على الذَّكر الطاعن في السن على لسان زكريا عليه السلام : ((أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰم وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّا (8))) هذا على خلاف ما ورد في موضع آل عمران.

وهذا التمايز والتغاير الواقع بين سياقين متشابهين إلى درجة كبيرة وفى الموقف نفسه، جاء بيانًا لزوايا خفية يكتمل بها كلا السياقين، فتأمل السياقين المتشابهين ((قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (41))) آل عمران. ((قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَال سَوِيّا(10) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11))) مريم. وكأن زكريا عليه السلام أدركته الآية المبشرة بالحمل عشاءً وهو يستقبل ليله فأُمر بالتسبيح بالعشي وبالإبكار حين يستقبل نهاره، وكأنه خرج من المحراب بكرة يستقبل يومه، ومبلغًا قومه عن طريق الرمز والإيحاء ((فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11))) وتدوم آية العجز عن الكلام ثلاثة أيام بلياليها، بدءًا بأول ليلة وانتهاء بآخر يوم، والحمد لله .

نتائج البحث:

أولاً ـ تأكد من خلال البحث أن للتنوع الحاصل في النسق القرآني علاقة مباشرة بالسياق القرآني بدوائره الأربع (سياق القرآن وسياق السورة وسياق النص وسياق الآية) ولا بد من دراسة جزئيات النسق كلاً متلاحمًا، لأن هذا سيساعد على استجلاء بعض أسرار هذا التنوع في كل موضع، فما يُذكر منها في كل سورة إنما يخدم هدف السورة وسياقها العام، ويلائم جوها ويناسب ملامحها، وينسجم مع روح السورة ومقاصدها.

ثانيًا ـ جاء التعبير عن دعاء زكريا عليه السلام محكمًا في البناء، متميزًا في الصياغة، يمتاز بتلوين الأسلوب وتنوعه، وتغاير النسق وتعدده، فبدا كل موضع وكأنه جديد في شكله ومضمونه، بما حواه من أسرار دقيقة في المعنى، جديدة في الأسلوب، فلم يظهر المتكرر على وجه واحد ولا بتعبير واحد، بل كل موضع منها يختلف عن الآخر في الأسلوب والنص والعبارة، بحيث إنها في كل موضع تفيد معنىً إضافيًا بحسب تلك الألفاظ وصياغتها وترتيبها ونسقها.

ثالثًا ـ لوحظ من خلال مناجاة زكريا عليه السلام طي حرف النداء؛ وهذه سمة عند الأنبياء جميعًا، وفي ذلك مزيد أدب مع الله Ψ مع ما فيه من استشعار القرب منه والحاجة إليه I، فهو خالقهم وهم أفضل البشر وأقربهم إليه سبحانه, وذلك بخلاف دعاء الله سبحانه لعباده فإنه غالبًا ما يأتي بحرف النداء "يا" المشيرة إلى أنه سبحانه موصوف بالتعالي والاستغناء عن خلقه.

وأوصي الباحثين بتقديم دراسات استقرائية تطبيقية شمولية لكل مجال من المجالات التي عمل فيها السياق القرآني على مستوى اللفظ والآية والنص، وأن يكون لهذه النظرية القائمة على دراسة المضمون الواحد ذي الأنساق المتعددة نصيب وافر في هذه الدراسات، فهي جديرة بالبحث والتقصي، وأرجو أن يمثل هذا البحث قطرة

تتلوها قطرات نافعة بإذن الله، وصلّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين .

الحواشي :

---

(1) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (ن،ظ،م) .
(2) القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ، ص1162 .
(3) يُنظر: التعريفات ، الجرجاني ، ص191 .
(4) الحيوان ، للجاحظ ، 9/1 .
(5) يُنظر : دلائل الإعجاز ، للجرجاني ، ص 81 ، و360 وما بعدها .
(6) يُنظر: التعبير الفني في القرآن، بكري أمين، ص154.
(7) يُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ص150-151 .
(8) لسان العرب، مادة نسق، حرف النون.
(9) يُنظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا، 81/5 .
(10) عصر البنيوية : إديث كريزويل ، ترجمة جابر عصفور ، ص: 415 .
(11) مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن والسور، عادل أبو العلاء ، ص: 82.
(12) معجم متن اللغة، أحمد رضا، 253/3.
(13) معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، علية عزت عياد ، ص: 83 .
(14) اللغة العربية معناها ومبناها الدكتور تمام حسان ، ص: 320.
(15) نظرية السياق القرآني ، المثنى محمود ، ص 15 .
(16) علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي ، هادي نهر ، ص : 236.
(17) يُنظر: المنحنى الوظيفي في التراث اللغوي، مسعود صحراوي، ص:42.
(18) لسان العرب، لابن منظور 257/14.
19() يُنظر: شأن الدعاء , للخطابي ، ص4 .
(20) يُنظر : بدائع الفوائد لابن القيم، 2/3.
(21) يُنظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : مادة (دعو).
22() يُنظر: معاني القرآن للزجاج 86/5 .
23() الفتوحات الربانية على الأذكار النووية المحمدية ، لملان المكي ، 1/ 17.
(24) مفاتيح الغيب للرازي : 22/ 189 .
(25) يُنظر: البداية والنهاية لابن كثير 231/5, ولسان العرب لابن منظور ، مادة (و ، ه، ب) .
(26) البحر المحيط لأبي حيان : 463/2.
(27) جامع البيان للطبري : 314/1.
(28) معجم الكليات لأبي البقاء الحسيني : ص 907 .
(29) مجموع الفتاوى لابن تيمية : 15/15.
(30) يُنظر: مفاتيح الغيب للرازي 21/ 153، ومجموع الفتاوى لابن تيمية، 15/ 15، وبدائع الفوائد لابن القيم، 3/ 517، 518.
(31) يُنظر: الإعجاز القصصي في القرآن، سعيد عطية علي مطاوع ، ص 153، 154.
(32) لسان العرب لابن منظور : مادة (ش ،ع ، ل) .
(33) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ، ص18، والتحرير والتنوير لابن عاشور 64/16، والكشاف للزمخشري 6/3.
(34) الاستعارة : هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء ؛ للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبه به. (يُنظر: التعاريف للمناوي ، ص 589).
(35) الكناية : هي أن تتكلم بشيء وتريد غيره . (يُنظر: لسان العرب ، مادة (ك ، ن ، ي) .
(36) فتح القدير للشوكاني : 3 / 321 .
(37) يُنظر: الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، صلاح الدين عبد التواب ، ص 63 .
(38) يُنظر: دلائل الاعجاز للجرجاني صـ93.
(39) يُنظر : الإتقان للسيوطي 2/ 120 .
(40) يُنظر : لسان العرب لابن منظور ، مادة (و، ه، ن) .
(41) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ، 5 / 254 – 255 .
(42) يُنظر: الكشاف للزمخشري 7/3، والبحر المحيط لأبي حيان 165/6، روح المعاني للألوسي ، 243/13.
(43) يُنظر : الكشاف للزمخشري 405/2.
(44) يُنظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود ، 172/6.
(45) التحرير والتنوير لابن عاشور 67/162.
(46) يُنظر: الكشاف للزمخشري 60/3، البحر المحيط لأبي حيان 7/ 328 .
(47) روح المعاني للألوسي 17/ 87 .
(48) يُنظر : التحرير والتنوير لابن عاشور 135/17.
(49) يُنظر: نفسه ، 17/ 99 .
(50) يُنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير 193/3 .
(51) يُنظر : روح المعاني للألوسي 87/17 .
(52) يُنظر: المحرر الوجيز لابن عطية 5/4، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 268/11، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، 213/5، تيسير الكريم الرحمن للسعدي: 489، أضواء البيان للشنقيطي: 361/3.
(53) نظم الدر للبقاعي : 468/12.
(54) يُنظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي 62/1.
(55) يُنظر: جامع البيان للطبري ، 387/16-388، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، 336/11، تفسير ابن كثير ، 370/5.
(56) يُنظر : جامع البيان للطبري ، 17/ 83 ، وتفسير ابن كثير، 3/ 194 .
(57) مفاتيح الغيب للرازي : 29/8.

(58) يُنظر: مفاتيح الغيب للرازي 30/8، ومعاني القرآن للفراء، 188/1.
(59) يُنظر: مفاتيح الغيب للرازي 33/8 .
(60) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الوصية 3/ 1255، ورواه أبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الصدق عن الميت، 3/ 117، والترمذي في الأحكام، باب في الوقف، 3/ 651، وقال : حسن صحيح .
(61) يُنظر : التحرير والتنوير لابن عاشور 238/3.
(62) الكشاف للزمخشري: 5/3 .
(63) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : 360/1 .
(64) يُنظر : جامع البيان للطبري ، 361/6 .
(65) يُنظر : روح المعاني للألوسي 145/3 .
(66) يُنظر: الكشاف للزمخشري 36/1، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 76/4، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير361/2 .
(67) يُنظر: الكشاف للزمخشري 36/1، والجامع للقرطبي 76/4، ومفاتيح الغيب للرازي 36/8، وروح المعاني للألوسي 147/3.
(68) يُنظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، 361/1، مفاتيح الغيب للرازي 36/8، روح المعاني للألوسي 148/3.
(69) يُنظر: الكشاف للزمخشري 36/1.
(70) مدارك التنزيل للنسفي: 1/ 156.
(71) يُنظر : ملاك التأويل لابن الزبير 1/ 298.
(72) يُنظر : البرهان للكرماني ، ص 144.
(73) يُنظر : فتح الرحمن للأنصاري ، ص 85 .
(74) يُنظر : كشف المعاني للألوسي ، ص 128 .
(75) يُنظر : مفاتيح الغيب للرازي، 214/7، أنوار التنزيل للبيضاوي ،15/2، التحرير والتنوير لابن عاشور 241/3.
(76) يُنظر : إرشاد العقل السليم لأبي السعود 254/5.
(77) يُنظر : الجامع لحكام القرآن للقرطبي 84/11 .
(78) يُنظر : روح المعاني للألوسي 15/3 .
(79) يُنظر: جامع البيان للطبري 388/16، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 336/11، تفسير القرآن العظيم لابن كثير370/5.
(80) يُنظر : مفاتيح الغيب للرازي 183/22.
(81) الكشاف للزمخشري : 7/3 .
(82) تيسير الكريم الرحمن للسعدي : ص13 .
(83) فتح الرحمن للأنصاري : ص87 .
(84) ملاك التأويل لابن الزبير : 1/ 299 ، 300 .
(85) يُنظر : لسان العرب لابن منظر ، مادة (ر، م ، ز) .
(86) يُنظر : الكشاف للزمخشري 3/ 9 ، مفاتيح الغيب للرازي 7 / 44 .
(87) يُنظر : العين للخليل 2/ 188، وجامع البيان للطبري ، 3 / 262 .
(88) يُنظر : روح المعاني للألوسي 3 / 152 .
(89) إرشاد العقل السليم لأبي السعود : 2 / 34 .

المصادر والمرجع :

- **القرآن الكريم .**
- الإتقان في علوم القرآن : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، ط1: 1419هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة، 1952م.
- الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، دار إحياء علوم العلوم ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1998م .
- البحر المحيط، محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، ط2، 1411 هـ /1990م
- البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق : عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1998م .
- بدائع الفوائد ، لابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).
- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة ، الطبعة الأولى، 1376هـ / 1957م .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ) المحقق: محمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة عدد الأجزاء 6، النشر: جـ 1، 2، 3: 1416هـ - 1996م جـ 4، 5: 1412هـ - 1992م جـ 6: 1393هـ - 1973م.
- بلاغة الدعاء في الحديث النبوي ، سلامة جمعة داود ، إشراف :عبد الحميد العيسي ، رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ـ القاهرة ، 1419هـ / 1998م .
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين دار الهداية، (د.ت).
- التحرير والتنوير ، لابن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس، الطبعة الأولى ، 1997م .
- التعبير الفني في القرآن، بكري أمين، دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان، ط1، 1994م.
- التعريفات ، الجرجاني ، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م .
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، (701-774هـ)، دار الفكر، بيروت ، 1401ه.

- تفسير القرآن العظيم ، محمد بن صالح بن عثيمين ،دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ـ الدمام ، المملكة العربية السعودية ، ط 1، 1423هـ .
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، تعليق وتصحيح : سمير مصطفى رباب، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت ، 2002م .
- تفسير النسفي، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق الشيخ: مروان محمد الشعار ، دار النشر، دار النفائس ـــ بيروت، 2005م .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376ه)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م.
- جامع البيان أو تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، 1388ه.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، المكتبة العصرية، بيروت ، 1429ه .
- الحيوان، أبو عثمان الحاظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة البابي الحلبى وأولاده ، 1938م.
- دلائل الإعجاز، الجرجاني ، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط3، 1413هـ - 1992م .
- روح المعاني للألوسي ، شهاب الدين الألوسي , دار إحياء التراث ـــ بيروت .
- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ
- شأن الدعاء , لابي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي, المعروف بالخطابي(ت 388هـ), تحقيق : أحمد يوسف القاق, دار الثقافة العربية , ط1, 1404هـ ـــ 1984م .
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت 256هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ/ 1987م .
- عصر البنيوية : إديث كريزويل ، ترجمة جابر عصفور ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ط1 ، 1993م .
- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي ، الدكتور هادي نهر، الأردن ، 2007م.
- الفتوحات الربانية على الأذكار النووية المحمدية لملان المكي دار الفكر , 1398هـ ـــ 1978م .
- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ــ تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، محمد نعيم العرقوسي ـــ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـــ لبنان، الطبعة السادسة، 1998م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (المتوفى: 538ه)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407ه.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة 2003م، مادة نسق، حرف النون.
- اللغة العربية معناها ومبناها الدكتور تمام حسان ، القاهرة ، 2004م .
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطرابلسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، (د.ت).
- مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، الطبعة الأولى، ج 17، مطابع دار العربية ، بيروت ، 1398م .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، الطبعة الأولى ، 1422هـ .
- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن والسور، عادل أبو العلاء، بحث منشور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 129، السنة 37، 1425هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج ، إبراهيم بن السري بن سهل ، عالم الكتب ـــ بيروت ، الطبعة الأولى ، 1408هـ ـــ 1988م .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1988م.
- المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين ، القاهرة ــ مصر، 1415هـ .
- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، علية عزة عياد ، الرياض ، 1984م .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي : مادة (دعو).
- معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1380هـ.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر ، الكتب العلمية، بيروت، 1997م .
- مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1421هـ /2000م .
- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل : لأحمد بن الزبير الغرناطي ، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية ، 1415هـ- 1985م.
- المنحنى الوظيفي في التراث اللغوي، مسعود صحراوي، مقالة نشرب في مجلة الدراسات اللغوية، صدرت عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس، العدد 1.
- المواهب الربانية، عبد الرحمن السعدي، مركز تدبر للدراسات والاستشارات، الرياض ـــ المملكة العربية السعودية، ط1، 1432هـ/2011م.
- نظرية السياق القرآني ـ دراسة تأصيلية نقدية ،د. المثنى عبد الفتاح محمود ، دار وائل للنشر ، ط1 ، 2008 م .